الخاتمة

يُعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان إيذاناً ببداية مرحلة سياسية جديدة من مراحل التاريخ الإسلامي، تقلد فيها الأمويون الحكم ومارسوا السياسة. وتحوّل نظام الحكم كما عرفه المسلمون ومارسوه في العهد الراشدي من نظام الشورى إلى النظام الملكي الوراثي، متخذاً طابعاً جديداً مغايراً، صاحبه كثير من مظاهر الترف التي حفلت بها قصور الأمويين.

وكان سبب هذا المنحى الجديد في المسار التنظيمي هو تغير مفاهيم العصر بفعل الفتوحات الإسلامية، واختلاط العرب بسكان البلاد المفتوحة، إلا أن دولة الخلافة الأموية بقيت إسلامية بشرعها وعرفها، واشتهر حكامها بأنهم خلفاء بحكم الإسلام، وهم في الوقت نفسه ملوك متوّجون، واندثر في هذا العصر مبدأ الشورى كما عرف في العهد الراشدي .

لكن هذا التحول إلى النظام الوراثي، الذي أحدثه معاوية بن أبي سفيان، لم يتماش بشكل متوازن، مع الاندماج السياسي والاجتماعي، مما أدى إلى فقدان الانسجام بين جناحي الخلافة الديني والزمني، وبالتالي إلى إضعاف النظام.

نتيجة لهذه المتغيرات في البنية السياسية، فقد انقسم المسلمون تجاه الوضع السياسي الجديد، فكانوا بين مؤيد ومعارض، فمنهم من بايع عن قناعة، معترفاً بالتغيير الحاصل، راضياً بانتقال مركز الخلافة من بلاد الحجاز إلى بلاد الشام، وبالتالي من المدينة المنورة إلى دمشق، مع ما نتج عن ذلك من تغييرات حضارية وفكرية؛ وحجة هذه الفئة من المسلمين أن النظام الأموي أضحى القوة الشرعية بعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، الذي أصبح خليفة المسلمين وإمامهم دون منازع، ومن ثم كانت مؤازرتهم له انطلاقاً من ضرورة السمع والطاعة لولي أمر المسلمين .

وكان معاوية رجل العصر المطلوب لملء الفراغ السياسي والقيادي بما له منخبرة وتجربة يؤهلانه لذلك المنصب الهام والخطير، وظل أهل الشام على ولائهم له .

أما المعارضون من أهل الأمصار فكانوا أهل الحجاز الذين لم يواكبوا تطور العصر، وقد ساءهم كثيراً انتقال مركز السلطة من بلادهم إلى بلاد الشام، وصمدوا أمام قوة معاوية، وظلوا على عدائهم للأمويين. وقد حمل عبد الله بن الزبير راية المعارضة في وقت مبكر، وشاركه العلويون في تبني هذا الموقف، وجاءت فترة كان فيها الحزب الزبيري من أقوى الأحزاب المعارضة للنظام الأموي .

ووقف أهل العراق في صف المعارضة، وإن اعترى موقفهم بعض السلبية، فدانوا بالولاء لآل البيت رغم ما لحق بهم من خيبة أمل نتيجة تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وخروجه من العراق إلى الحجاز معتزلاً السياسة والناس، إلا أن العراق ظل مصدر قلق للسلطة الأموية، فاضطر الأمويون إلى التشدد في إدارته، فعينوا عليه أكفأ وأقسى ولاتهم .

وساء آل البيت أن يروا خلفاء بني أمية وقد تولوا شؤون المسلمين، وكانوا بالأمس القريب أشد أعداء النبي وآخر من آمنوا به ، كما رؤعهم فساد أخلاق بعض خلفائهم، وتساهلهم الديني.

ورغم العراقيل التي صادفها الأمويون، فإنهم تمكنوا من إرساء دعائم نظام جديد أملته الظروف السياسية المستجدة، ومكانة الدولة الإسلامية في ذلك الوقت، ذلك أن العقلية الإسلامية لم تقف جامدة أمام التطورات الحضارية التي شهدتها الدولة الإسلامية، وإنما تفاعلت معها وأنتجت نظاماً يتلاءم مع المبادىء الإسلامية العليا، ولا يخرج عن الإطار العام كما رسمه القرآن الكريم وحددته السنة، ويوحد بين مصلحة الإسلام العليا ومصلحة الأمة من حيث ظروفها السياسية والدنيوية واتجاهات العصر، فكان الانفتاح الحضاري على الشرق والغرب إحدى الخطوات الهامة للأخذ بأسباب التطور.

وكانت ولاية العهد أولى الخطوات التي خطاها الأمويون من أجل تثبيت أقدام أسرتهم، والانتقال بالسلطة من نظام الشورى، الذي ساد في عصر الخلفاء الراشدين إلى النظام الملكي الوراثي، وقد أجازها الفقهاء، في حين رأى بعض المسلمين أن معاوية بتصرفه هذا لم يترك الأمر شورى لجماعة المسلمين. لكن معاوية الذي عاش أحداث الصراع على السلطة منذ وفاة الرسول ، اجتهد في أن يقي الأمة الإسلاميةتمزقاً جديداً، فرأى أن يعهد لمن يليه في القيام بأمر المسلمين. فاستخدم ذكاءه ودهاءه من أجل ذلك، واستطاع أن يحصل على بيعة أهل الشام والعراق لابنه يزيد، وبقي الحجاز خارج نطاق البيعة، فذهب بنفسه إلى المدينة، والتقى فيها بعدد من زعماء المسلمين وناقشهم في هذا الأمر. ولما أصر هؤلاء على موقفهم الرافض هددهم بالقوة وانتزع البيعة منهم .

لم تقف الفئات المعارضة أمام هذا الوضع الذي اعتبرته شاذاً، مكتوفة الأيدي .إذ انشقت على النظام القائم، إلا أنها لم تحرك ساكناً بانتظار الفرصة المناسبة التي جاءت بعد وفاة معاوية، فقام الشيعة في العراق، كما تمرد الخوارج، وقاد ابن الزبير حركة المعارضة في الحجاز. ونجح المعارضون في أن يضعوا أمام الرأي العام الإسلامي قضية سياسية هامة هي اعتلاء يزيد السلطة دون مسوغ شرعي، مما اضطره أن يواجه الموقف بالشدة .

ونتيجة لذلك، شهد العالم الإسلامي جولات من الصراع العسكري العنيف، تمثلت بخروج الحسين بن علي إلى العراق ومقتله في كربلاء، وخروج أهل المدينة على حكم يزيد، وموقعة الحرة ثم حصار مكة بعد أن

تحصن فيها ابن الزبير، وتوقف القتال فيها بموت يزيد وتولية ابنه معاوية الثاني خلافة المسلمين تأييداً لمبدأ الملكية الوراثية. لكن معاوية الثاني كان مريضاً، لم يتمكن من قيادة المسلمين، واضطر أن يتنازل عن خلافته بعد أربعين يوماً من ولايته، مما هدَّد الخلافة الأموية بالسقوط وسط أجواء من انقسام المسلمين في الأمصار، والتنافس القبلي، وتنازع الأسرة الأموية، فاقتضى الأمر عقد مؤتمر في الجابية لحسم الأمر، واتفقت عدول بني أمية على اختيار مروان بن الحكم خليفة للمسلمين .

أن دولة الخلافة الأموية لم تتأقلم بعد .المتغيرات السياسية المستجدة لجهة اكتساب عنصر الاستمرارية في القيادة، فقد ظلت محتفظة، بطابعها المحلي والقبلي الضيق، ولم تستوعب ما أفرزته العقيدة الإسلامية، وحركة الفتوحات من انقلاب جذري وحاسم في تاريخ المنطقة. وإذا كانت قد نجحت في بداية حياتها السياسية في لعبة التجاذب القبلي ووظفتها لصالحها، إلا أن ذلك قد ساعد على ضعفها وسقوطها عندما أصاب هذه اللعبة الخلل.

لقد قامت دولة الخلافة الأموية على دعامة أساسية تمثلت بالتمايز العربي، فيالوقت الذي اتسعت فيه آفاق الدعوة الإسلامية، وامتدت أطراف العالم الإسلامي لتشمل العرب وغير العرب من أجناس مختلفة. ولعل الاعتبارات القبلية أكثر ما استبدت بالأسرة الأموية كتيار سياسي حاسم، وهي موصولة الجذور بالنزعة العربية التي سادت جزيرة العرب في العصر الجاهلي، وهذا من حتميات التطور. فالعرب هم مادة الإسلام واللغة العربية هي لغة ،الإسلام والأمويون فرع من قبيلة قريش العربية، بل عصبها، وقد كرست الدولة الأموية سيادة العرب وسيطرتهم.

والواقع أن هذا الاتجاه العربي، وإن بدا طبيعياً، من وجهة النظر الأموية، إلا أنه أسفر عن تألم أهل البلاد المفتوحة، وتحديداً الموالي، باعتباره يتنافى مع طبيعة الدعوة الإسلامية العالمية، وأتيح لهؤلاء القيام بأدوار نشطة ضمن الحركات المناهضة للحكم الأموي. وكان الشيعة الأقدر على التحاور معهم بحكم المصلحة المشتركة، وهي العداء للنظام.

والثابت أن بروز الموالي ومشاركتهم في الحياة السياسية، خاصة في العراق، لم يؤثر على الوضعية الحركية لدولة الخلافة الأموية إلا في الربع الأخير من حياتها، حين تحول هؤلاء إلى قوة ضاغطة تحالفت مع الأحزاب المعارضة والقيادات التي كانت لها مواقف سلبية من النظام الأموي، وتبلورت في إطار الدعوة العباسية التي ضربت على وتر شعار المساواة. وحدث منذ ذلك الوقت تحول حاسم في مسار المعارضة تحول معه الصراع العربي إلى صراع يحمل في طياته خلفية اجتماعية وربما عنصرية فارسية .

كما واجه هذا الاتجاه العربي، انقسام العرب على أنفسهم، وذلك أن انتقال مركز الخلافة إلى دمشق، أضفى أهمية متزايدة لعرب الشام، فأصبحوا عماد الدولة الجديدة، وأضحت بلاد الشام في المنزلة الأولى بين

الأمصار، واضطرت الدولة الناشئة أن تعتمد في إدارتها على أهل هذه البلاد الذين أمدوها بالعمال والموظفين من أبنائها، مما أحدث صدعاً في بنيان العلاقات القبلية. وتعتبر معركة مرج راهط دليلاً على تمزق وحدة الصف العربي واشتعال نار العصبية بين القبائل العربية.

كان على مروان بن الحكم، على الرغم من قصر عهده أن يتدخل عسكرياً لقمع المعارضين والخارجين على حكمه في الأمصار ، فنجح في مصر وتوفي قبل أن يعيد سيطرة الأمويين على الحجاز والعراق، فقام ابنه عبد الملك، الذي خلفه في الحكم، بمتابعة جهوده، وقد نجح في التصدي عسكرياً لتمرد القبائل العربية، وقضى علىحركتي التوابين وابن الزبير، وأمسك بلعبة التجاذب القبلي، فأعاد اللحمة إلى دولة الخلافة الأموية، ووحد من جديد العالم الإسلامي تحت رايتها .

وحرص عبد الملك، رغم مشاكله السياسية، على إضفاء الطابع العربي على دولته ليستكمل خطوات معاوية، فكان تعريب الإدارة، ولغة الدواوين والنقود، وهي خطوة أخرى صبغت وجه الدولة بالطابع العربي والسيادة الإسلامية، وترافقت مع نجاحه السياسي، لتضع أساساً صلباً لأعظم الإنجازات في عهد ابنه الوليد، توضحت في اتساع رقعة الدولة الإسلامية إلى مدى لم تصله من قبل ولا من بعد، واستقرار سياسي، وقيام نهضة عمرانية نشطة .

وخلف الوليد أخوه سليمان، وكانت له نظرة سياسية خاصة في إدارة الدولة. وقامت سياسته الداخلية القبلية على أساس التوازن. ويعتبر عهد عمر بن عبد العزيز الذي خلف سليمان، فترة انتقال حقَّق خلالها هذا الخليفة مثل الحياة السياسية التي ملات وجدانه منذ شبابه، فانصرف إلى الإصلاح الداخلي، والتمس عطف العلويين أمية، وخفف من أثقال الجزية المفروضة على النصارى، وسوى بين العرب والموالي في الوضع الشرعي ملتزماً بإسقاط الجزية عمن أسلم، فكسب بذلك عطف شعوب البلاد المفتوحة وأغرى من لم يكن قد دخل منهم في الإسلام، للدخول فيه.

تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك، وقد اختلف في أخلاقه وعاداته وسياسته عن عمر. وبفعل سياسته القبلية غير المتوازنة نشطت في عهده لعبة التجاذب القبلي مما أدى إلى بعث روح العصبية بين القبائل العربية، وقد أخذت تنخر في عظام الخلافة الأموية التي بدأ الوهن يتسرب إلى جسمها، كما أن سياسته العدائية للموالي، دفعهم للقيام بحركات مضادة.

لكن دولة الخلافة الأموية انتعشت في عهد هشام بن عبد الملك، الذي خلف يزيد الثاني، إلا أن هذا الانتعاش أشبه بمن يستعيد وعيه أثناء سكرات الموت. وشهدت خراسان خلال عهده صراعاً قبلياً أضعف نفوذ العرب في هذه المنطقة من جهة ، وقوى نفوذ الموالي، وبالتالي سلطة العباسيين من جهة أخرى . ويبدو أن نظام الوراثة، الذي أوجده معاوية بن أبي سفيان، لم يعد حلاً لمسألة الخلافة، فتنافس أفراد البيت الأموي بعد هشام

للحصول على هذا المنصب دوناحترام لهذا المبدأ، مما زاد في تراجع النفوذ الأموي، فزالت سلطة الأمويين في المناطق الشرقية في عهد مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين، ووقعت في أيدي العباسيين وحلفائهم الخراسانيين بعد تفرق كلمة العرب، ثم سيطر هؤلاء على العراق. وكانت معركة الزاب التي قادها مروان إيذاناً بسقوط دولة الخلافة الأموية اختتمت فصولها بمقتله في قرية بوصير في مصر عام (١٣٢هـ/ ٧٥٠م)

.

من مآثر دولة الخلافة الأموية، التي تُذكر لها، أعمالها في مجال السياسة الخارجية؛ فقد نجحت في إحياء حركة الفتوح التي توقفت أثناء نشوب الحروب الأهلية، فأضافت أراض جديدة إلى دار الإسلام كما حافظت على المكتسبات السابقة، فسجلت في هذا المجال تقدماً للمسلمين. ففي الشرق كانت فتوح بلاد ما وراء النهر، وبلاد السند، وبلغت سيادة المسلمين أطراف الهند. وفي الغرب كان استكمال فتح المغرب، ومن ثم العبور إلى الأندلس وفتحها وضمها إلى دار الإسلام، والتوغل داخل القارة الأوروبية في عمق بلاد الفرنجة. أما على الجبهة البيزنطية فظلت الحرب سجالاً بين الطرفين، وتركزت المناوشات في المناطق الحدودية، لكن المسلمين أضافوا أراضي جديدة في أرمينيا وأذربيجان.

وإذا كانت دولة الخلافة الأموية قد حققت تلك الأمجاد الرائعة في مجال الفتوحات وانتشار الإسلام، رغم ما واجهته من صعاب وحركات مناهضة داخلياً، فماذا كانت ستحقق من أمجاد أخرى لو لم تواجه تلك الصعاب التي استنفدت كثيراً من طاقاتها ؟ .

وبسقوط دولة الخلافة الأموية، خسر العرب، بشكل عام، السيادة المطلقة ورجحت كفة الفرس بعد قيام دولة الخلافة العباسية، لكن هؤلاء لم يتمكنوا من القضاء على العنصر العربي بشكل نهائي، وقد ظل أفراده يشغلون مراكز رفيعة في الإدارة والجيش ويجدون سنداً قوياً في السلالة العباسية الحاكمة. فاحتفظت اللغة العربية بسلطانها المطلق في المعاملات الرسمية، وفي مجمل الحياة الفكرية، وفي الدين فوق كل شيء .